﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾ [الزّخرف: 88 - 89]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

أعْيَتْهُ الحيلَةُ في المشركين، فَفَوَّضَ أمْرَهُ إلى رَبِّهِ شاكيًا تكذيبَهم

بعد ما مضى من المحاجَّة، ومن حكايةِ إقرارهم بأنَّ اللّه الَّذي خلقهم بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾، ثمَّ إنَّهم لم يؤمنوا، ولم يتزحزحوا عن الكفر قِيدَ أُنملة؛ اشتدادًا منهم في التَّكذيب والعِنادِ الَّذي لا يزدادُ بمرورِ الزَّمان إلّا قوَّةً؛ حصلَ اليأسُ للرَّسول ﷺ من إيمانهم وأعيتْهُ الحيلةُ، فَفَوَّضَ أمْرَهُ إلى رَبِّهِ شاكيًا تكذيبهم بقوله: يا ربِّ بعثْتني إلى قومٍ لا يؤمنون، وذلك ليُجْرِيَ حُكمَه عليهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقِيلِهِۦ﴾: القيل مصدرٌ كالقول، و(قول) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يَقِلُّ كَلِمُهُ، وهو القَولُ من النُّطقِ، والمِقْوَلُ: اللِّسانُ، ورَجُلٌ قَوَلَةٌ وقَوّالٌ: كثيرُ القَولِ[2]، والقَولُ: مصدرُ (قال)، ومعناهُ: الكلامُ على التَّرتيبِ، أو كُلُّ لفظٍ نَطَقَ به اللِّسانُ، سواءٌ كان مُفيدًا أو لم يكُن، قال يقولُ قَولًا، أي: تكلَّم كلامًا، والقَولُ يقعُ على الكلامِ التّامِّ، وعلى الكلمَةِ الواحدَةِ على سبيلِ الحقيقةِ، ويُستعمَلُ بمعنى جميعِ الأفعالِ، كقولهم: قال بيدهِ هكذا، أي: أخَذَ، وقال برجْله، أي: مَشى[3]، ومعنى ﴿وَقِيلِهِۦ﴾، أي: قوله، والأظْهَرُ أنَّهُ اسمٌ مُرادٌ بِهِ المَفعولُ، أي: المَقولُ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 499، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 272.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قول).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (قول)، والنّووي، تهذيب الأسماء واللّغات: 4/ 106، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 277.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 655، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 271.

2) ﴿فَٱصۡفَحۡ﴾: أصلُ (صفح) عَرْضُ الشَّيءِ وجانِبُهُ، ومِنهُ سُمّيَ العَفْوُ صَفْحًا[1]؛ لأنَّ الَّذي يَصفَحُ كأنَّهُ يُقابِلُ المُسيءَ بِصَفْحَةِ عُنُقِهِ إعراضًا عن إساءَتِه، أو يَتَجاوَزُ الصَّفْحَةَ السَّيِّئَةَ، ويُقابِلُهُ بِالصَّفْحَةِ الجَميلَةِ، والصَّفْحُ: العَفْوُ والتَّجاوُزُ عن غَيرِه، يُقالُ: صَفَحَ يَصْفَحُ صَفحًا؛ إذا عَفا، وتَجاوَزَ، ويأتي بِمعنى الإعراضِ عن الذَّنْبِ وتَرْكِ العُقوبَةِ، فيُقال: صَفَحْتُ عَنهُ، أي: أعرَضْتُ عن ذَنْبِهِ[2]، "والصَّفحُ: أصلُه أن تنحرفَ عنِ الشَّيء، فتوليَهُ صفحةَ وجهِكَ، أي: ناحيتَه"[3]، والمُرادُ من الصَّفح في الآيةِ: أن يُعْرِضَ النَّبيُّ ﷺ عنهم وعن دعوتهم وأذاهم، ويتركَهم[4]، كالَّذي يولِّي صفحتَه، أي: عَرْضَه، وجانبَهُ للمُذْنِب.

3) ﴿سَلَٰمٞۚ﴾: أصلُ السَّلام: السَّلامَةُ، فاستُعمِلَ عِندَ اللِّقاءِ إيذانًا بِتَأمينِ المَرْءِ مُلاقِيَهُ، وأنَّهُ لا يُضْمِرُ لَهُ سوءًا، ثُمَّ شاعَ، فَصارَ قَولًا عِندَ اللِّقاءِ لِلإكرام، والسَّلامَةُ: البراءةُ منَ العيوب، وأن يَسلَمَ الإنسانُ مِنَ العاهَةِ والأذَى، واللّهُ جَلَّ ثَناؤُهُ هو السَّلامُ؛ لِسَلامَتِهِ ممّا يَلحَقُ المَخلوقِينَ مِنَ العَيبِ والنَّقصِ والفَناءِ، وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان: 63]، مَعْناهُ، أي: تَسَلُّمًا وبَراءَةً لا خَيْرَ بَيْنَنا وبَينَكُم ولا شرَّ، وليس على السَّلام المُستَعمَل في التَّحيَّة[5]، ومعنى ﴿سَلَٰمٞۚ﴾ في الآية: توديعُ المشركين بالسَّلام ومفارقتُهم، وليس المرادُ التَّحيَّة لهم[6]، أي: سَلَّمْنا في المُجادَلَةِ، وتَرَكْناها[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يحكي القرآنُ شكوى النَّبيِّ ﷺ، بعد أن أعيتْهُ الحيلةُ في قومه، ففوَّضَ أمرَه إليه، فيقولُ سبحانه: وقال محمَّدٌ ﷺ قيلَه شاكيًا إلى ربِّه ﷻ قومَه الَّذين كَذَّبوه، وما يلقى منهم: يا ربِّ إنَّ هؤلاء الَّذين أمرتَني بإنذارهم، وأرسلتني إليهم لدعائهم إليكَ، قَومٌ لا يُؤمِنونَ بالحَقِّ الَّذي جِئتُهم به، فيُجيبه اللّهُ بقوله: فاصفَحْ يا محمَّد عن أولئك المُشرِكينَ،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (صفح).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صفح).
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 28.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 656، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 273.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(6) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 243.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 273.

تعظيمُ اتِّجاه الرَّسولِ لربِّه شاكيًا المشركينَ، وتوجيهِهِ بالإعراض عنهم

واتركهم، وأعرِضْ عن أذاهم ومُؤاخَذتِهم وعِتابِهم، وقُل لهم وعيدًا وتهديدًا: سَلامٌ عليكم، فَسوفَ يعلَمونَ ما يَلقونَ منَ البلاءِ والنَّكالِ والعذابِ على كفرهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى (الواو) ودلالتُها في: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ﴾:

إيحاءٌ بمدى عُمقِ قِيلِ النَّبيِّ والعنايةِ به من الله

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ﴾ إمّا عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه هو السّاعةُ في قَولِه تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، والمعنى: وعِندَه عِلمُ السّاعةِ وعِلمُ الرَّسولِ: يا رَبِّ، أو للقَسَم، ومَقولُ (قِيلِه) هو ﴿يَٰرَبِّ﴾ فقط، أي: أقْسَمَ بنِداءِ الرَّسولِ ربَّه نِداءَ مُضْطَرٍّ، وجوابُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾[2]، وفي هذا العطفِ أو القَسَمِ بقِيلِه ﷺ إيحاءٌ بمَدى عُمْقِ هذا القول، ومدى الاستماعِ له، والعنايةِ به، والرِّعايةِ من اللّه سبحانه والاحتفاءِ به.

تنوُّعُ القراءات في: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾، وثراءُ المعنى:

إثراءٌ للمعنى وتأكيدٌ على قِيلِ النَّبيِّ ﷺ

اختلف القُرّاءُ في قراءة قوله: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾، فقَرَأَهُ الجمهور ﴿وَقِيلَهُۥ﴾ بفتحِ اللّامِ وضَمِّ الهاء[3]، ووجهُهُ أنَّ النَّصب عطف على ﴿سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾، أي: أم يَحسَبونَ أنّا لا نَسمَعُ سِرَّهم ونَجْواهم، ولا نَسمَعُ قِيلَهُ: يا رَبِّ، أو عطفٌ على مَوضِعِ السّاعَةِ في قَولِه تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: وعِندَه أن يَعلَمَ السّاعةَ وقِيلَهُ، أو نُصِبَ على اعتبارِ أنَّه مفعولٌ مطلق بَدَلٌ من فِعْلِه، أي: وقال الرَّسولُ قِيلَهُ، أو على المَفْعولِ بِهِ لِقَولِه: ﴿لَا نَسۡمَعُ﴾، والتَّقديرُ: بَلى نسمعُ سرَّهم ونجواهم، ونَعْلَمُ قِيلَهُ، أي: تَضرُّعَه

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 656، و657.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 57، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 273.
(3) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 370.

إلينا، أو بِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ دَلَّ عَليهِ قَولُهُ: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: ويَعْلَمُ قِيلَهُ[1].

وقَرَأ عاصمٌ وحمْزَةُ بكَسرِ اللّامِ والهاءِ (قِيلِهِ)[2]، وجَرُّه إمّا عطفًا على السّاعةِ كما مرَّ، أي: وعندَه عِلمُ السّاعةِ وعِلمُ قيلِ الرَّسولِ ﷺ، وهو على هذا وعْدٌ للرَّسولِ بالنَّصْرِ، وتَهْديدٌ لهم بالانتقامِ، أو للقَسَمِ به، وفي هذا من رفعِ شأنِه ﷺ وتفخيمِ دُعائِه والتجائِه إليهِ تعالى ما لا يَخْفى[3].

مَرجِعُ الضَّمير في: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾، ودلالتُه:

اختصارٌ في الكلامِ، ولا مقصودَ غيرُ النَّبيِّ في الخطاب

مرجِعُ الضَّميرِ في (قِيلَه) هو الرَّسولُ ﷺ، بقَرينَةِ سِياقِ الاستِدلالِ والحِجاجِ مِن قَولِه: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾، وبقَرينَةِ قَولِه: ﴿يَٰرَبِّ﴾، وبقَرينَةِ أنَّه قالَ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾، وبقَرينَةِ إجابَتِه بقَولِه: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾[4]، ولم يُصرِّح به اختصارًا في الكلام، ولأنَّه لا مقصودَ غيرُه في الخطاب؛ لكونِه المُبلِّغَ عن ربِّه سبحانه، ولِطولِ ما دعا النَّبيُّ ﷺ قومَه إلى الإيمان، وهم مُعْرِضون عن الحَقِّ، ومُكذِّبون بالقرآنِ وبالرَّسول، قال ابنُ عبّاس ﷺ: "شكا النَّبيُّ تخلُّفَ قومِه عن الإيمانِ إلى ربِّه بقوله: قِيلِه يا ربِّ"[5].

سرُّ إضافَةِ القِيلِ إلى ضَميرِ الرَّسولِ ﷺ:

تشريفٌ للقِيلِ ومضمونِه، وإشعارٌ بأنَّه حالٌ مِن أحوالِ النَّبيِّ ﷺ

في إضافَةِ القِيلِ إلى ضَميرِ الرَّسولِ تشريفٌ للقِيلِ ومضمونِه، وإشعارٌ بأنَّه تكرَّر منه، وعُرِفَ به عندَ رَبِّه، أي: عُرِفَ بهذا وبِما في مَعْناهُ مِن نَحوِ: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 272، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 108.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 370.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 57.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 271.
(5) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ: 25/ 149.

[الفرقان: 30][1]، وصارَ في مُلازَمَتِهِ وعَدَمِ انفِكاكِهِ حالًا مِنَ الأحوالِ، الدّالِّ عَلى وجْهِ قِيلِهِ وانكِسارِ نَفسِهِ بِما دَلَّتْ عَلَيهِ كَسْرَةُ المَصدَرِ ويائُهُ المُجانِسَةُ لَها[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالالتفات من ضمير الخطاب إلى ضمير الغائب:

حِكايَةٌ من الله لِشَيءٍ في نَفْسِ الرَّسولِ تُظهِرُ عنايةَ الله بِندائِهِ وشَكواه

ضَميرُ الغائِبِ في ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ التِفاتٌ عن الخِطابِ في قَولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ فإنَّه بعدَ ما مَضَى مِن المُحاجَّةِ ومِن حِكايَةِ إقرارِهِم بأنَّ اللّهَ الَّذي خَلَقَهم، ثمَّ إنَّهُم لم يَتَزَحزَحوا عن الكُفرِ قِيدَ أُنْمُلَةٍ؛ حَصَلَ اليَأسُ للرَّسولِ مِن إيمانِهِم، فقال: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ التِجاءً إلى اللّهِ فيهم، وتَفويضًا إليه؛ ليُجرِيَ حُكمَه عليهم، فمُقتَضى الظّاهِرِ: وقَولُكَ: يا رَبِّ ... إلخ، ويُحَسِّنُ هذا الالتِفاتَ أنَّه حِكايَةٌ لشَيءٍ في نَفْسِ الرَّسولِ، فجَعَلَ الرَّسولَ بمَنزِلَةِ الغائِبِ؛ لإظهارِ أنَّ اللّهَ لا يُهمِلُ نِداءَهُ وشَكواهُ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ القِيل في: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾:

تـوكـيـدُ وقـوعِ شكوى النَّبيِّ للهِ حتّى لكأنَّه صارَ أمْرًا ضَروريًّا لَهُ

اختيرَ لِلتَّعْبيرِ عَن هذا المَعنى لفظ (القِيل)، وهو مَصْدَرُ (قالَ)، يفيدُ توكيدَ وقوعِ نداءِ النَّبيِّ ﷺ وشكواه للّه تعالى، وهو لفظٌ مشتركٌ مع لَفظِ الماضِي المَبنِيِّ لِلمَجهولِ؛ إشارَةً إلى أنَّ شَكواهُ بِذَلِكَ كَأنَّها صارَت أمرًا ضَروريًّا لَهُ، لا اختيارَ لَهُ في قَولِه، فَكَأنَّهُ صارَ قَولًا مِن غَيرِ قائِلٍ أو مِن غَيرِ قَصدٍ؛ لأنَّهُ صارَ حالًا مِنَ الأحوالِ؛ لاشتدادِهم في تَكذيبِهِم ومُباعَدَتِهِم وعِنادِهِم، لا يَزدادُ بِمُرورِ الزَّمانِ إلّا قوَّةً؛ ممّا أوقَعَ في نَفْسِ الرَّسولِ ﷺ؛ أسَفًا ورِقَّةً وشَفَقَةً عَلَيهِم وعَطْفًا، وصارَ يَشْكو أمرَهم إلى رَبِّهِ شَكوى المُضطَرِّ سِرًّا وعَلَنًا؛ إرادَةَ التَّيسيرِ في أمرِهِم والتَّهوينِ لِشَأنِهِم[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 271.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 500.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 271.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 499.

الغرضُ من التَّعبير بالنِّداء، واستعمالِ لفظِ الرُّبوبيَّة في: ﴿يَٰرَبِّ﴾:

نداءُ مُضطَرٍّ فَزِعَ إلى ربِّه؛ شفقةً على المشركين لشِدَّةِ إعراضهم

استعملَ البيانُ القرآنيُّ في مقولِ (قيلِه) ﷺ: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ﴾ أداةَ النِّداءِ المستعملة في البُعد على غَيرِ العادَةِ في دُعاءِ المُقَرَّبينَ، فَإنَّها جارِيَةٌ في القُرآنِ بإسقاطِ أداةِ النِّداءِ؛ للإشارة إلى حالِ النَّبيِّ ﷺ من انكسارِ نفسه، والشَّفقةِ عليهم؛ لشِدَّة إعراضهم، وأنَّ نداءَه هو نداءُ مُضطَرٍّ فَزِعَ إلى ربِّه[1]، وفي استعمالِ لفظ الرُّبوبيَّة تأكيدٌ لهذا المعنى، فلفظُ الرَّبِّ دالٌّ على الإحسانِ والعَطفِ والشَّفَقَةِ والتَّدبيرِ والسِّيادَةِ والاختِصاصِ والولايَةِ[2]، كما أنَّ التَّعبيرَ بالنِّداءِ بلفظِ الرَّبِّ يُشعِرُ بالقُربِ، ويوحِي بالإجابةِ، ويُفيدُ كمالَ التَّضرُّعِ[3].

نُكْتَةُ حَذْفِ ما نوديَ لأجله:

حَـذْفٌ يُشيرُ إلى ثقةِ النَّبيِّ ﷺ بعِلمِ ربِّه بما في ضميره ورحمتِه به

حُذِفَ بعدَ النِّداءِ في المُقسَمِ به، وهو: ﴿يَٰرَبِّ﴾ ما نودِي لأجلِه؛ إذ التَّقديرُ بما دلَّ عليه مَقامُ مَن أعيَتْه الحِيلَةُ فيهم، ففَوَّضَ أمْرَه إلى رَبِّه: (يا ربِّ بعثتَني إلى قومٍ لا يؤمنون)، فأقسَمَ اللهُ بتلكَ الكَلِمَةِ على أنَّهُم لا يُؤمِنون، ولَكِنَّ اللهَ سيَنتَقِمُ مِنهُم؛ فلذلك قال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[4]، وفي هذا الحذفِ اختصارٌ يُشيرُ إلى ثِقةِ الحبيب ﷺ بعِلمِ ربِّه بحاله، فهو الرَّحيمُ به، الشَّفوقُ عليه، المُحسنُ إليه، المُدبِّرُ لأُموره.

الغرضُ من التَّوكيد بـ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجُملة:

في التَّوكيدِ دلالةٌ على زيادةِ تحسُّرِ النَّبيِّ ﷺ على قومِه؛ لإعراضِهم وغُلوِّهم في كفرهم

إمّا أن يكونَ التَّأكيدُ من النَّبيِّ ﷺ لتكذيب قَومِه بـ﴿إِنَّ﴾ وباسميَّة الجملةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لِما ظَهَرَ لَهُ من حالِهم، وزِيادَةً في التَّحَسُّرِ[5]، ودلالةً على إثباتِ رسالته؛ لأنَّه أخبرَ أنَّهم لا يُؤمنون، وقد كان على ما أخبرَ، بما يدلُّ على أنَّه ﷺ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 273.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 500.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 108.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 273.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 500.

باللّه عَرَفَ ذلك، وعَلِمَهُ[1]، أو أن يكون التَّأكيدُ من اللّه ﷻ لجوابِ القَسَمِ بقيلِهِ ﷺ؛ تَعْظِيمًا لِلرَّسولِ ولِقِيلِه، وتخفيفًا عنه، ورحمةً به، وتطييبًا لخاطره، وتأكيدًا على غُلوِّ قومِه في كفرهم، وإعراضِهم عن الحقِّ، وفي المَعْنَيَين إشارَةٌ إلى أنَّ تَأخيرَ أمرِهِم يَدُلُّ على أنَّ عدمَ إيمانِهم مقطوعٌ فِيهِ[2]؛ لكونه استعملَ أداةَ النَّفي ﴿لَّا﴾ النّافيةِ لجميعِ الأزمنة.

الغرضُ من التَّعبير بالمسند إليه باسم الإشارة ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾:

سـوءُ حـالِ المشركين سببُ استشعارِ النَّبيِّ بُعدهُ عنهم

أشارَ البيانُ القرآنيُّ إلى المُشركين مِن أهلِ مَكَّة بلفظ ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾، كما هي عادَةُ القُرآنِ غالبًا، ولَم يُضِفْهم إلى نَفسِه، بأن يَقولَ: قَومي، ونحو ذلك مِنَ العِباراتِ، ولا سَمّاهم باسمِ قَبيلَتِهم؛ لِما ساءَهُ مِن حالِهم، وأتى بالهاء المُنَبِّهَةِ قَبْلَ اسمٍ على غيرِ عادَةِ الأصلِ؛ إشارَةً إلى أنَّه استَشعَرَ مِن نَفسِهِ بُعدًا عنهم، واستِصغارًا لَهم واحتِقارًا[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالمُسند مُنكَّرًا ﴿قَوْمٌ﴾:

تَمَكُّنُ الكُفرِ من قومِ النَّبيِّ سببٌ في تفويضِ أمره إلى الله

وَصَفَ البيانُ الحكيم المشارَ إليهم - وهم مشركو مكَّة - بلفظ ﴿قَوْمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ﴾، ولم يقل: (هَؤُلاءِ لا يُؤمِنون)؛ لكون التَّعبير بلفظ ﴿قَوْمٌ﴾ أدَلَّ على تَمَكُّنِ عَدَمِ الإيمانِ مِنهُم[4]، وللإشارة إلى أنَّ كفرَهم كان كُفرًا جماعيًّا، لا كُفرًا فرديًّا[5]؛ لأنَّ القوم في أصله يدلُّ على جماعةِ ناسٍ[6]، وهذا يدلُّ على أنَّهم كانوا أقوياءَ في الباطل[7]، وفي هذا بيانٌ لسببِ ما أصابَ النَّبيَّ ﷺ من يأسٍ وأسَفٍ على حالهم، ألجأهُ إلى الشَّكوى إلى اللّه، وتفويضِ أمرهم إليه.

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 195.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 500.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 500.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 273.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 108.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 501.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع في: ﴿لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾:

استمرارُ عدمِ إيمانهم، وتجدُّدُ إعراضِهم ومُباعدتِهم عن الحقِّ

التَّعبيرُ بالمضارعِ في قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ عدمِ إيمانهم وتجدُّدِ إعراضهم ومُباعدتهم عن الحقِّ[1]، ولكونه أنسبَ مع لفظ القوم الَّذي يدلُّ على أنَّهم كانوا أقوياءَ في الباطِلِ.

استعمال الخبر بمعنى الإنشاء في: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾:

تحسُّرُ النَّبيِّ على المشركين وشكايتُهم إلى اللهِ ليُجْرِيَ حُكْمَهُ عَلَيهِم

ويمكن أن يكون قولُه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ خبرًا بمعنى الإنشاء، مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان: 30]، أي: استعملَ البيانُ القرآنيُّ الخبرَ في الآية في التَّحَسُّرِ أوِ الشِّكايَةِ؛ التجاءً إلى اللهِ فيهم، وتَفويضًا إلَيه، لِيُجرِيَ حُكمَهُ عَلَيهِم[2].

معنى الفاء ودلالتُها في: ﴿فَٱصۡفَحۡ﴾:

الفاءُ بين فصيحةٍ تُنبئُ عن محذوفٍ، وسببيَّةٍ تُنبئُ بما يَسرُّ النَّبيَّ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحۡ﴾ فَصيحَةٌ؛ لأنَّها أفصَحَتْ عن مُقَدَّرٍ، أي: إذا قُلتَ ذلك القِيلَ، وفَوَّضْتَ الأمرَ إلينا؛ فسَأتَوَلَّى الانتِصافَ مِنهُم، فاصفَحْ عنهم، أي: أعرِض عنهم، ولا تَحزَن لهم[3] أو سببيَّةٌ، أي: تسبَّبَ على قولِ النَّبيِّ ﷺ الدّالِّ على غايةِ ما يكون من بُلوغِ الجهدِ ما يَسرُّه بإيمانهم وبلوغِهم الرُّتبَ العالية، الَّتي هي نتيجةُ ما كان مُترجّى لهم أوَّلَ السّورة في سياقِ ظاهرُه التَّهديدُ وباطنُه البشارةُ بالتَّشديد، وهذا على اعتبارِ الصَّفح بمعنى العفو[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالالتفات من الغائب إلى الخطاب في: ﴿فَٱصۡفَحۡ﴾:

المواجهةُ بالأمر إيذانٌ بالاهتمامِ بشأنِه ﷺ وشأنِ ما أُمِرَ به

التفتَ النَّظمُ الحكيم من الغَيْبة في قوله: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾، إلى الخِطاب بقوله: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾؛ تلوينًا في الخطاب، وتنبيهًا لأهمِّيَّة ما سيُؤْمَرُ به ﷺ، فالمواجهةُ في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 501.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 272.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 273.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 501.

الخطابِ أبلغُ في مقامِ الأمرِ والنَّهي الَّذي يكون مباشرًا وقويًّا، ولكون الخطاب أنسبَ لغَرضِ الآية، وهو الإرشادُ والتَّسليةُ لرسول الله ﷺ.

الغرضُ من التَّعبير بالأمر بالصَّفح عنهم في: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾:

في الأمرِ بالصَّفح عن المشركين تهديدٌ وتحذيرٌ لهم

اختلفَ المُفسِّرون في معنى الصَّفح في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾؛ فقد فُسِّر بمعنى الإعراضِ عن المشركين وتَركِ مجادلتِهم، أي: أعرِض عنهم واترك مجادلتَهم، فَسوفَ يَعلَمونَ سوءَ عاقبةِ كفرِهم وإصرارهم على باطلهم[1]، فتكون الآيةُ في ظاهرها وباطنها التَّهديد، واختيارُ الصَّفح وفقَ هذا المعنى دونَ لفظِ التَّرك؛ لكونه أبلغَ في بيانِ شدَّةِ الإعراضِ، ففيه مع التَّركِ الإعراضُ بصفحةِ الوجه[2]، وفُسِّر بمعنى العفو، أي: اعفُ عمَّن أعرضَ منهم صفحًا، فلا تلتفتْ إليهم بغير التَّبليغ، وكِلهُم لي، فأنا أكفيكَهُم، فسوف يعلمون بوعدٍ لا خُلْفَ فيه، فتكون الآيةُ في ظاهرها تحملُ التَّهديدَ، وفي باطنها تحمل البشارةَ[3]، واختيارُ الصَّفح وفقَ هذا المعنى دونَ لفظِ العفو؛ لكونه أبلغَ، فقد يعفو الإنسانُ، ولا يَصفَحُ، فالصَّفحُ: تركُ التَّثريب.

معنى الواوِ ودلالتُها في: ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾:

من كمالِ التَّخفيفِ عن النَّبيِّ ﷺ الابتعادُ عن كلِّ ما يُنغِّصُ عليه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قولُه تعالى: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾، وسرُّ الجمعِ بين الصَّفح (وهو الإعراضُ عنهم) والسَّلام (وهو سلامُ مفارقةٍ لا سلامُ تحيَّةٍ)، هو كمالُ التَّخفيف عن النَّبيِّ ﷺ، والحِرصُ على ابتعاده ﷺ عن كلِّ ما يُنغِّص عليه.

الغَرض من التَّعبير بالخبر ﴿سَلَٰمٞۚ﴾ وحذفِ المبتدأ، ومن التَّعبير بمقول القول جملةً اسميَّة:

أصلُ ﴿سَلَٰمٞۚ﴾ مَصدرٌ جاء بَدَلًا من فِعلِه؛ فأصلُه النَّصبُ، سَلَّمْنا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 35/ 274، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 273.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 28.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 501.

سلامًا، أي: وقُل لَهُم؛ إن جادَلوكَ: سَلامٌ، أي: سَلَّمْنا في المُجادَلَةِ وتَرَكْناها، وهو سلامُ مفارقةٍ لا سلامُ تحيَّة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: 63]، وعُدِلَ إلى رَفعِه ﴿سَلَٰمٌ﴾؛ لقَصدِ الدَّلالَةِ على الثَّباتِ على تركِ المُجادلة مع الكافرين[1]، أي: شأني الآن متاركتُكم بسلامتكم منّي وسلامتي منكم[2]؛ إذِ الجملةُ الاسميَّةُ تُفيدُ الثَّبات.

في الاسميَّة توجيهٌ للنَّبيِّ ﷺ على الثَّباتِ في تَرْكِهِ مجادلةَ الكافرين

معنى الفاءِ ودلالتُها في: ﴿فَسَوْفَ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تفريعيَّةٌ؛ فقد فرَّعَ البيانُ القرآنيُّ على أمرِ اللهِ للنَّبيِّ ﷺ بالإعراضِ عن المشركين، وعدمِ الحُزن عليهم، وتركِ مجادلتِهم بتهديدٍ ووعيدٍ وتحذيرٍ للمشركين، وتَسليَةٍ لرَسولِه الكريم ﷺ، بأنَّ اللهَ منتقمٌ منهم بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[3].

تفريعٌ على أمرِ الله لنبيِّه ﷺ بالإعراضِ عن المشركين ومجادلتِهم بأنَّه المُنْتَقِمُ منهم

نُكْتَةُ التَّعبير بـ ﴿فَسَوْفَ﴾:

التَّعبيرُ بحرفِ الاستقبال في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾؛ لإفادةِ تأكيدِ التَّهديد والوعيد للكافرين وتثبيتِه، وأنَّه واقعٌ لا محالة؛ إذ إنَّ أكثرَ استعمالات (سوف) في القرآن لتأكيدِ الوقوع في القابل، أضف إلى أنَّ في مجيئها مع المضارع إفادةَ تجدُّدِ ما سيعلمونه، ممّا أعدَّه اللهُ لهم من عذابٍ ينتظرهم يومَ ينكشف المستور، وفي هذا مزيدُ تسليةٍ للنَّبيِّ ﷺ.

تأكيدُ التَّهديد والوعيد للكافرين وتثبيتُه

الغَرضُ من حذف مفعول ﴿يَعْلَمُونَ﴾:

حَذَفَ البيانُ القرآنيُّ مفعولَ ﴿يَعْلَمُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾؛ للتَّهويلِ؛ لتَذهَبَ نُفوسُهم في تهديدِ اللهِ لهم ووعيدِه كلَّ مَذهَبٍ مُمكِن، وهذا على قراءة (تَعْلَمونَ)[4]، وأمّا على

مبالغةٌ في تهديدِ المشركين وتسليَةِ حبيبِ ربِّ العالَمين ﷺ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 273.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 501.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 274.
(4) وهي قراءة نافع وابن عامر وأبي جعفر، ينظر: ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 370.

قراءة ﴿يَعْلَمُونَ﴾؛ فهي ليَذهبَ ذِهنُ النَّبيِّ ﷺ فيما وعدَهُ اللهُ إيّاه في الانتقام من المشركين كلَّ مذهبٍ[1].

تنوُّعُ القراءةِ في: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ وثراءُ المعنى:

وعيدٌ مِن اللهِ ورسولِه ﷺ للمُشركينَ بما سيَلقَونَه مِنَ العذابِ على كُفرِهم

في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قراءتان متواترتان[2]، **الأولى:** قِراءةُ ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بالتّاءِ على الخِطابِ، قرأ بها نافعٌ، وابنُ عامرٍ، وأبو جَعفرٍ، بمعنى: أنَّ اللهَ تعالى أمَرَ نَبيَّه ﷺ أن يقولَ ذلك للمُشركينَ؛ تَهديدًا لهم، مع قَولِه لهم: سَلامٌ، **والثّانية:** قِراءةُ الباقين: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بالياءِ على الغَيبةِ والخَبَرِ، على أنَّه وعيدٌ مِن اللهِ تعالى للمُشركينَ بما سيَلقَونَه مِنَ العذابِ على كُفرِهم، والمعنى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ يا محمَّد ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾، ثمَّ ابتدأ - تعالى ذِكْرُه - الوعيدَ لهم، فقال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ما يلقونَ من البلاءِ والنَّكالِ والعذابِ على كفرهم[3].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الصَّفْح والعفْو:

تولِيةُ صَفْحةِ وجهِهِ ﷺ إعراضًا عنهم، أشدُّ من مجرَّد تَرْكِ معاقبتِهم

الصَّفحُ أبلغُ من العفو، فقد يعفو الإنسانُ، ولا يَصْفَحُ، فالصَّفْحُ: تَرْكُ التَّثريب؛ إذ أصْلُ (صفح): عَرْضُ الشَّيءِ وجانِبُهُ، ومِنهُ: سُمِّيَ العَفوُ صَفحًا؛ لأنَّ الَّذي يَصفَحُ كأنَّهُ يُقابِلُ المُسيءَ بِصَفحَةِ عُنُقِهِ إعراضًا عن إساءَتِه، أو يَتَجاوَزُ الصَّفْحَةَ السَّيِّئَةَ، ويُقابِلُهُ بالصَّفْحَةِ الجَميلَةِ[4]، أي: تجاوزتُ الصَّفْحَةَ الَّتي أثبتُّ فيها ذَنبَه من الكتابِ إلى غيرها[5]، "والصَّفحُ: أصلُه أن تنحرفَ عنِ الشَّيء، فتوليَهُ صفحةَ وجهِكَ، أي: ناحيتَه"[6]، بينما العَفْوُ: تَرْكُ عُقوبَةِ المُستَحِقِّ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 274.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 370.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 657، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 274.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صفح).
(5) الرّاغب، المفردات: (صفح)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 421.
(6) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 28.

وعَفْوُ اللّه تعالى عن خَلْقِهِ: تَرْكُهُ إيّاهُم، فلا يُعاقِبُهُم فَضلًا مِنهُ، والعفوُ يدلُّ في أصله على تَركِ الشَّيءِ، وقيل: العَفْوُ: المَحوُ، مِن عَفَتِ الرِّياحُ الأثَرَ، أي: دَرَسَتْه، ومَحَتْهُ[1]، وقد ناسبَ هنا استعمالُ لفظِ الصَّفح، كونه أبلغَ من العفو في الإعراض عن المشركين - وإن كان المرادُ بالصَّفح هنا المعنى اللُّغويَّ - فقد أمرَ النَّبيُّ ﷺ أن يُعرِضَ عنهم، كالَّذي يولِّي صفحةَ وجهِه لهم، وهذا أشدُّ من مُجرَّد تركِهم دونَ عقاب، وكذلك يتناسبُ الصَّفحُ مع لفظ ﴿سَلَٰمٌۚ﴾.

السَّلام والتَّحيَّة:

السَّلامُ تحيَّةٌ مخصوصةٌ، وهو تحيَّةُ الإسلام، ومعنى السَّلام عليكم: أمَّنَكم منَ العذاب في الدُّنيا والآخرة[2]، وأصلُه في اللُّغة من السَّلامَة: وهي البراءةُ منَ العيوب، وأن يَسلَمَ الإنسانُ مِنَ العاهَةِ والأذَى، وقد استُعمِلَ عِندَ اللِّقاءِ إيذانًا بتَأمينِ المَرءِ مُلاقِيَهُ، وأنَّهُ لا يُضمِرُ لَهُ سوءًا، ثُمَّ شاعَ، فَصارَ قَولًا عِندَ اللِّقاءِ لِلإكرام[3]، بينما التَّحيَّةُ تشملُ جميعَ أنواعِ التَّرحيب؛ إذ تُطلَق على كُلِّ قَولٍ أو فِعلٍ يُؤتَى بِهِ عند اللِّقاءِ بِقَصدِ التَّكريم، وأصلُ التَّحيَّة: الدُّعاءُ بالحَياة، وقَولُ: حَيّاكَ اللّهُ، أي: أبقاكَ، وأدامَكَ، ثمَّ جُعلتِ التَّحيَّة عبارةً عن مُطلقِ الدُّعاء؛ وإن لم يكن هو لفظَ الحياة، وغلبتِ التَّحيَّة على سلام النّاس بعضِهم على بعض[4]، وقيل أصْلُها: استِقبالُ المُحَيّا، وهو الوَجْهُ[5]، وقد استَعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿سَلَٰمٌۚ﴾ دونَ تحيَّة؛ لأنَّ المقصودَ بالسَّلام هنا توديعُ النَّبيِّ ﷺ المشركين ومفارقتُهم، والبراءةُ منهم، أي: تسلُّمًا وبراءةً، لا خيرَ بيننا ولا شرَّ، وليس المقصودُ التَّرحيبَ بهم.

السَّلامُ تحيَّةٌ إسلاميَّة مخصوصة تُستعمَل عند اللِّقاءِ وعند التَّوديع

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، الزّبيديّ، تاج العروس: (عفو).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/ 297، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/ 527.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حيا، حيي).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (حيا).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"